المحاضرة الثالثة

الخطبة رقم ٤

وهي من أفصح كلامه عليه السلام وفيها يعظ الناس ويهديهم من ضلالتهم ويقال أنه خطبها بعد قتل طلحة والزبير

بِنَا اهْتَدَيْتُمْ فِي الظَّلْمَاءِ وَتَسَنَّمْتُمُ الْعَلْيَاءَ وَبِنَا انْفَجَرْتُمْ عَنِ السِّرَارِ وَقِرَ سَمْعٌ لَمْ يَفْقَهِ الْوَاعِيَةَ كَيْفَ يُرَاعِي النَّبْأَةَ مَنْ أَمَّتْهُ الصَّيْحَةُ زِبْطَ جَنَانٌ لَمْ يُفَارِقْهُ الْخَفَقَانُ مَازِلْتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَوَاقِبَ الْغَدْرِ وَأَتَوَسَّمُكُمْ بِحِلْيَةِ الْمُغْتَرِّينَ حتى سَتَرَنِي عَنْكُمْ جِلْبَابُ الدِّينِ وَبَصَّرَنِيكُمْ صِدْقُ النِّيَّةِ أَقَمْتُ لَكُمْ عَلَى سَنَنِ الْحَقِّ فِي جَوَادِّ الْمَضِلَّةِ حَيْثُ تَلْتَقُونَ وَلَا دَلِيلَ وَتَحْتَفِرُونَ وَلَا تَمِيهُونَ الْيَوْمَ أُنْطِقُ لَكُمُ الْعَجْمَاءَ ذَاتَ الْبَيَانِ عَزَبَ رَأْيُ امْرِئٍ تَخَلَّفَ عَنِّي مَا شَكَكْتُ فِي الْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ لَمْ يُوجَسْ مُوسَى عليه السلام خِيفَةً عَلَى نَفْسِهِ بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الْجُهَّالِ وَدُوَلِ الضُّلَّالِ الْيَوْمَ تَوَاقَفْنَا عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ مَنْ وَثِقَ بِمَاءٍ لَمْ يَظْمَأْ

معاني المفردات:

١ـ الظلماء: الظلمة

٢ـ تسنمتم: أصله ركوب السنام وهنا يراد به العلو

٣ـ الذروة: جمعها ذُرى وذرى أعلى الشيء

٤ـ العلياء: السماء، المكان العالي، رأس الجبل

٥ـ انفجرتم: دخلتم في الفجر

٦ـ السرار: الليلة والليلتان يختفي فيهما القمر في آخر الشهر

٧ـ وقر: الوقر الصمم

٨ـ يفقه: يفقهم

٩ـ الواعية: الصراخ، والمقصود هنا الزواجر

١٠ـ يراعي: يحفظ

١١ـ النبأة: الصوت الخفي

١٢ـ أصمته: من الصم وهو عدم السمع

١٣ـ الصيحة: الصوت بشدة

١٤ـ ربط الله على قلبه: أي قواه وصبره

١٥ـ الجَنان: القلب

١٦ـ الخفقان: الاضطراب والتحرك

١٧ـ العواقب: أواخر كل شيء

١٨ـ الغدر: الخيانة ونقض العهد

١٩ـ أتوسمكم: أتفرس فيكم

٢٠: حلية: زينة

٢١ـ المغترين: غرَّه غرورا، خدعه وأطمعه بالباطل

٢٢ـ الجلباب: ثوب يلبس فوق الثياب

٢٣ـ بصرنيكم: عرفني إياكم

٢٤ـ سنن: من السنة، الطريقة الواضحة

٢٥ـ جواد: سريع

٢٦ـ المضلة: الأرض التي يضل فيها صاحبها

٢٧ـ تحتفرون: تحدثون الحفر، وحفر البئر نقرها

٢٨ـ لا تميهون: لا تجدون الماء

٢٩ـ العجماء: ما لا نطق له

٣٠ـ ذات البيان: صاحبة النطق واللسان

٣١ـ عزب: بَعُدَ وخَفي وغاب

٣٢ـ تخلّف: تأخر

٣٣ـ يوجس: يخاف، والفزع يقع في القلب

٣٤ـ خيفة: الخوف والفزع

٣٥ـ أشفق: خاف

٣٦ـ غلبة الجهال: منازعة الجهال وقهرهم

٣٧ـ تواقفنا: من الوقوف

٣٨ـ وثق به: إطمأن به

٣٩ـ يظمأ: يعطش

شرح النص

تتضمن هذه الخطبة الشريفة بعض المطالب العظيمة والمناقب الكريمة لأهل البيت ع يذكرها الإمام سلام الله عليه احتجاجاً لمن أنكرها وتذكيراً لمن نسيها وبياناً لحقيقة أهلها

(بِنَا اهْتَدَيْتُمْ فِي الظَّلْمَاءِ) بآل محمد اهتديتم من ظلمات الكفر والشرك والانحراف والانحطاط في الجاهلية.

(وَتَسَنَّمْتُمُ العَلْيَاءَ) السنام؛ ما يعلو ظهر البعير، والمراد بنا ارتقيتم إلى قمة الشرف والرفعة وعلوتم بعد أن كنتم خاملي الذكر، وصارت أمة الإسلام أرقى الأمم وأعزها.

(وبِنَا انْفَجَرْتُم عَنِ السِّرَارِ) انفجرتم؛ أي دخلتم بعد ليلة ظلماء، والسرار؛ هي آخر ليلة أو ليلتين من الشهر عندما يختفي القمر والمراد: ببركتنا دخلتم فجر الإسلام بعد ظلمات الجاهلية.

(وُقِرَ سَمْعٌ لَمْ يَفْقَهِ الوَاعِيَةَ) هذا الكلام على سبيل الدعاء، أي صمت أذن من لم يفهم الصيحة ولم يتدبر الموعظة والعبرة الواضحة الجلية، وهذه إشارة إلى آيات القران الكريم وأحاديث النبي

(كَيْفَ يُرَاعِي النَّبْأَةَ مَنْ أَصَمَّتْهُ الصَّيْحَةُ) النبأة هي الصوت الخفي، أي كيف يسمع الصوت الخفي من لم يسمع الصوت العالي وكيف يهتم بصغائر الأمور من خالف عظامها ولعل المراد؛ كيف يصغي لي ويستمع قولي من لا يراعي أوامر الله ورسوله، وهذا كله على سبيل الاستفهام الاستنكاري.

(رُبِطَ جَنَانٌ لَمْ يُفَارِقْهُ الخَفَقَانُ) هذا دعاء للقلب الذي يضطرب ويخفق خوفاً من الله تعالى بأن يربطه ويثبته.

(مَا زِلتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَوَاقِبَ الغَدْرِ، وَأَتَوَسَّمُكُمْ بِحِلْيَةِ الـمُغْتَرِّينَ) أي لم أزل انتظر منكم الغدر وأتوسم أي أتفرس، كون النبي ص أخبرني بنكث العهد منكم في العاقبة وكنت أنتظر منكم ذلك.

(سَتَرَنِي عَنْكُمْ جِلْبَابُ الدِّين) الجلباب هو الثوب العريض الفضفاض الذي يلبس فوق الثياب، وكأنه ع يقول: إن تمسكي بالدين وخوفي من الله تعالى هو الذي حال بيني وبينكم ومنعني من معاقبتكم وتأديبكم.

(وَبَصَّرَنِيكُمْ صِدْقُ النِّيَّة) أي صدق نيتي وصفاء سريرتي هو الذي جعلني أبصر أحوالكم وأنظر إلى بواطنكم، وهذا من باب أن المؤمن ينظر بعين الله.

(أَقَمْتُ لَكُمْ عَلَى سَنَنِ الحَقِّ فِي جَوَادِّ الـمَضَلَّةِ) هذا تحريض وحث منه عليه السلام لهم على طلب العلم منه ع، لعلهم يستضيئون بدلالته وهدايته في (الجواد المضلة) أي الطرق التي توجب ضلال من يسير فيها فهو عليه السلام رسم لهم طريق النجاة وأقام لهم السنن والطرق المثلى.

(حَيْثُ تَلْتَقُونَ وَلا دَلِيلَ، وَتَحْتَفِرُونَ وَلا تُمِيهُونَ) أي أن بعضكم يسأل بعضاً عن طرق النجاة وكلكم تائهون لابتعادكم عن إمامكم، وتحتفرون الأرض لأجل الحصول على الماء ولا تجدونه، هذا كناية عن أنكم مهما بذلتم جهداً في سبيل الوصول إلى ما ينجيكم لا تصلون ولا تجدون ذلك إلا عند إمامكم.

(اليَوْمَ أُنْطِقُ لَكُمُ العَجْمَاءَ ذاتَ البَيَانِ) العجماء هي البهيمة التي لا نطق لها أو كل شيء ليس من شأنه النطق، والمراد أنه ينطق لهم كل ما لا يكون له نطق في الحقيقة فإذا نظر فيه الناظر وتأمل المتأمل أخذ ما يفيده، يعني أعرض عليكم الأدلة التي لا محيص لكم عنها فإنها تنطق ولا لسان لها وتقول ولا بيان لها إذ الأدلة تنطق بلسان الحال إن كانت تعجز عن المقال.

(عَزَبَ رَأْيُ امْرِئٍ تَخَلَّفَ عَنِّي) غاب وبَعُدَ رأي كل من تخلف عني ولم يتبعني وتمسك بالطريقة الجاهلية، لأنه (من ماتَ ولم يعرف إمام زمانه مات ميتةً جاهلية).

(مَا شَكَكْتُ فِي الحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ) هذا تنبيه منه عليه السلام لعصمته.

(لَمْ يُوجِسْ مُوسَى خِيفَةً عَلَى نَفْسِهِ، أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الجُهَّالِ وَدُوَلِ الضَّلالِ) إشارة إلى ما ورد في سورة طه الآية ٦٧ وكأنه عليه السلام يبدي خوفه على الأمة من سلاطين الجور والظلم كمعاوية وأصحابه والدول التي تحكم كحكمه، كما خاف موسى ع أن يلتبس على الناس سحر السحرة وتطوّل دولة فرعون فتصير القلوب قاسية.

(اليَوْمَ تَوَاقَفْنَا عَلَى سَبِيلِ الحَقِّ وَالباطِلِ) أي اليوم تقابلنا أنا وأنتم، فأنا أمثل الحق وأنطق به وأنتم تحملون راية الباطل وتدعون إليه.

(مَنْ وَثِقَ بِمَاءٍ لَمْ يَظْمَأْ) أي من عنده قائد موثوق وواعظ صادق لا يتسلل إليه الشك والترديد ولا يحتاج لغيره لأنه يرى نفسه على جرف ماء المعرفة والفرات العذب، فإن كان كذلك لا يصير عطشانا كما أنه لم يعطش قبل ذلك لما وثق بالماء.

نَحْنُ الشِّعَارُ وَالأَصْحَابُ وَالخَزَنَةُ وَالأَبْوَابُ